﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: 101 - 102]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

النِّفاق خارجيٌّ وداخليٌّ، والثاني أشدُّ خطرًا على المجتمع الإسلاميّ

لمَّا بيَّن الله تعالى أحوال منافقي المدينة، وأحوال منافقي الأعراب، ثم بيَّن أنَّ في الأعراب من هو مخلص صالح، ثم أخبر عن رؤساء المؤمنين من السابقين ومن تَبِع هديهم؛ شرع في بيان حال منافقي أهل المدينة ومَن حولها، والذين لا يعرفهم رسول الله ﷺ، ثم أتبع سبحانه ذكر هذا الجمع المنافقِ الجافي بذكر الجمع التائبِ الصافي؛ وهم الذين اعترفوا بذنوبهم، وندموا على فِعالهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾: المدينة: كلُّ أرضٍ يُبنى في وسطها حِصْن[2]، وكذلك البلدة التي كثر سُكَّانها[3]. ومعناها المحوريُّ: المِصرُ الجامع المحصَّن.

وتعريف المدينة بالحصن يذكِّرنا باتِّخاذ القدماء قلاعًا ونحوها مبالغةً في الامتناع والتحصُّن من الأعداء، وفيه الفرق بينها وبين القرية التي هي تجمُّعٌ لبيوتٍ لم يلحظ فيه التحصُّن"[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/130، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/495، والبقاعي، نظم الدرر: 9/10، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مدن).

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مدن).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مدن).

ومَدَن بالمكان: أقام به، ومنه سُمّيت المدينةُ على وزن فَعِيلَة، وجمعها: مدائن.

والمدينة في الآية: اسمٌ لمدينة رسول الله ﷺ خاصَّة، والنِّسبة إليها: مدَنيٌّ[1].

2) ﴿مَرَدُواْ﴾: مَرَد يمرُد مُرُودًا: عتا، وعصى، وطغى، وتكبَّر، ومَرَد على الشَّيء، فهو مارِدٌ ومَريد: هو العاتي والطّاغي[2]. وأصله من تجريد الشَّيء من قِشرِه، أو ما يعلوه من شَعَرِه[3]. ومنه قيل: مردَ فلانٌ عن المحاسن وعن الطَّاعة، أي: تجرَّد منها. ومنه الشَّيطان المريد، والمارد والمريد من شياطين الجنِّ والإنس: هو الخارج عن الحقِّ المتجرِّد من الخير العاري منه[4].

وقوله تعالى: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، أي: ارتكسوا عن الخير، وهم على النِّفاق[5].

3) ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾: المرَّة: الفعلةُ الواحدة، والمرَّتان الفعلتان، وجمعها: المَرُّ والمِرار[6]. وأصله من مُضيِّ الشَّيء، تقول: لقيتُهُ مرَّةً ومرَّتين، وإنَّما هو عبارةٌ عن زمان قد مرَّ[7]. فالمرَّة والمرَّتان: المدَّة من الزَّمان، وتطلق على كلِّ جزء من الزَّمان[8].

والمراد بالمرَّتين في الآية: مرَّةً في الدنيا بانكشاف نفاقهم وقتْلِهم وأسْرِهم، ومرَّةً بعذاب القبر بعد الموت.

4) ﴿ٱعْتَرَفُواْ﴾: اعترف بذنبه: أقرَّ به، والاعتراف: الإقرارُ، وهو إظهار معرفة الذَّنب، والرِّضا به[9]. وأصله من سكون النَّفس وطمأنينتها[10]. ومنه المعرفة والعِرفان: ضدُّ الإنكار؛ لأنَّ النَّفس إذا أنكرت شيئًا؛ استوحشت منه، وإذا عرفته؛ سكنت له، واطمأنَّت، يقال: عرَف الشَّيء يعرِفه معرفة وعِرفانًا، واعترفه: عَلِمه[11].

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب الزبيدي، تاج العروس: (مدن).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مرد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرد).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مرد).
(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مرد).
(6) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مرر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرر).
(8) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مرر).
(9) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عرف).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(11) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (عرف).

وعَرَف بذنبه عُرْفًا، واعترف به: أقرَّ به، أي: أظهر معرفتَهُ به؛ لأنَّه إذا أقرَّ به؛ فقد عرَفه وعَلِمه بالضرورة[1].

5) ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: الذُّنُوب: جمع ذَنْب، وهو الجُرْم والإثم والمعصية[2]. وأصله من التَّأخُّر والتَّخلُّف وهبوط الرُّتبة والسُّفول[3]. فكأنَّه أخذ بذَنَب الشَّيء الذي هو مؤخَّرُه وذيلُه، ويُستعمَل في كلِّ فعل لا تُحمد عُقباه، اعتبارًا بذَنَب الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الذَّنْب: تَبِعَةً وعقوبة؛ اعتبارًا لما يحصل من عاقبته[4].

6) ﴿خَلَطُواْ﴾: خلط: خَلَط الشَّيء بالشَّيء يَخلِطه خَلْطًا: مَزَجَه، وهو أعمُّ من أن يكون في المائعات، أو الجمادات، أو المائعات والجمادات[5]. وأصله من تداخل أجزاء الشَّيء بعضها في بعض، وهو خلاف تنقيةِ الشَّيء من الشَّيء وتخليصِهِ[6]. ومعنى قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾. أي: "يتعاطون هذا مرَّةً، وذاك مرَّةً"[7].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا يخلو صفُّ مؤمنٍ من منافقين مجافين، ومن تائبين مصافين

يفضح المولى ﷻ - في هاتين الآيتين الكريمتين - هؤلاءِ المنافقين من الأعراب الذين تقعُ منازلهم حول المدينة، والذين هم من أهل المدينة ممَّن أقاموا، وثبتوا على النِّفاق، وارتكسُوا عن الخير، لا تعرفهم أنت - أيُّها النَّبيُّ الكريم - بأعيانهم، ولا تعلمُهم، فالله

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (عرف).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (ذنب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذنب).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذنب).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (خلط).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلط).
(7) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).

وحده سبحانه مَنْ يَخْتَصُّ بمعرفتهم وفضْحِهم، وتوعُّدِهم بالعذاب مرَّتين في الدنيا بانكشافِ نفاقِهم وقتلِهم وأسرهم وبالمصائب والأمراض أوَّلًا، ثُمَّ بآلام الموت وعذاب القبر ثانيًا، ثم يُرجعون إلى العذاب الأَشدِّ، وهو عذابُ النّار وبئس المصير، وهناك فريقٌ آخر مِمَّنْ هم حول المدينة، ومَنْ فيها اعترفوا، وأقرُّوا بمعاصيهم؛ كونهم جمعوا عملًا صالحًا، وهو إيمانهم وجهادهم بآخر سيِّئ، وهو التَّخَلُّفُ عن غزوة تبوك بغير عُذْر، ولم يأتوا بأعذارٍ كاذبة، فأعلمهم اللّه سبحانه بقبول توبتِهِ عليهم ومغفرته لهم؛ لأنَّه سبحانه ذو عفوٍ وصفحٍ ومغفرةٍ لمن تاب عن ذنوبه وأناب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف في الآية:

المنافقون يستترون في أحضان مجتمع الإيمان، والله معذِّبهم على خِداعهم

العطف في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ يمكن تقسيمه كما يلي:

أولًا: العطف في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾: فقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ﴾ وتحديدًا على (مَن) المجرورة بمن؛ والعطف هنا شروعٌ في بيان منافقي أهل المدينة ومَن حولها من الأعراب، بعد بيانِ حال أهل البادية منهم، أي: وممَّن حول بلدكم مُنافِقُونَ[2]، والآية معطوفةٌ على الآية السّابقة لها.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/643 - 650، والبغوي، معالم التنزيل: 4/89 - 90، وابن جزي، التسهيل: 1/346، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/178 - 180، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/96، والزحيلي، التفسير المنير: 11/21 - 22، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 6/393 - 395، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 350، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/23 - 24، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/420، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: 1/203.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/10.

ثانيًا: العطف في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ وهو من باب عطف الجمل، وقد أفاد بيانًا لاختلاف العذابين وتفاوتهما، وأنَّ عذاب الآخرة عذابٌ شديد عظيم؛ إذا قيس بعذاب الدنيا.

معنى (مِن) في: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾:

(مِنْ) في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ للتَّبعيض[1]. وعبَّر بـ(من) التَّبعيضيَّة؛ لأنَّ فيهم مؤمنين صادقين، دعا لهم النبيُّ ﷺ ومدحهم[2]. وفي إبهامهم وعدم تعيين هذا البعض للمسلمين تحذيرٌ للمجتمع المسلم، وترهيبٌ للمؤمنين من أن يكونوا مثلَ هؤلاءِ؛ فيكون مَدعاةً لمزيد إخلاص.

ميزانُ الإيمان يرفع المؤمنين، ويخفض المنافقين

وهو إيذانٌ للمنافقين بأنَّ الله يعلمهم، وإنْ لم يعيِّنْهم للنبي ﷺ، فيكون ذلك إمهالًا لهم ليتوبوا قبل أن يُفتَضحَ أمرُهم.

معنى (مَن) ودلالتها:

(مَن) في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ هي (من) الموصولة للعاقل، وفيها إبهامٌ؛ فعدمُ التصريح بهؤلاء المنافقين لقصد الدلالة على معانٍ تتضمَّنها صلة الموصول ﴿حَوْلَكُم﴾، ففيه تنبيهٌ من الله ﷻ للمؤمنين كي يكونوا في يقظة دائمةٍ مع هؤلاء المجهولين من الناس، فهم يعيشون بينهم، ويخفون أمرهم.

المنافقون يعيشون بين المؤمنين وحولهم

والمراد بالموصول (مَن) قبائلُ: جهينة، ومزينة، وأشجع، وأسلم، وغفار، وكانت منازلُهم حول المدينة[3].

واستُشْكِل ذلك بأنَّ النبيَّ ﷺ مدح هذه القبائل، ودعا لبعضها؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/22.
(3) يقول الآلوسي: "وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين كالبغوي، والواحدي، وابن الجوزي، وغيرهم". ينظر: الآلوسي، روح المعاني: 6/10.

فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرةَ عنه ﷺ أنَّه قال: «قريش، والأنصار، وجهينة، ومزينة، وأسلم، وأشجع، وغفار مواليَّ، ليس لهم مولًى دون الله ورسوله»[1]، وأُجيب بأنَّ ذلك باعتبار الأغلب منهم[2]، وقد بادَروا إلى الإسْلام والإيمانِ، فهم خَيرٌ عند الله من أولئك الَّذين ظَلُّوا على العناد والكفر في أوَّلِ الأمر، مثل أسَدٍ، وطيِّئٍ، وغَطَفانَ.

معنى ﴿حَوْلَكُم﴾ وموقعُها النَّحويُّ:

المؤمنون محاطون بأصنافٍ من المنافقين

و﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ خبر مقدَّم، و﴿مُنَٰفِقُونَ﴾ هو المبتدأ[3]. و﴿حَوْلَكُم﴾ ظرفٌ ومضاف إليه، و﴿حَوْلَكُم﴾ صلة (مَن) الموصولة، ومعنى ﴿حَوْلَكُم﴾: حول بلدتِكم، وهي المدينة، والذين كانوا حولَ المدينة: جُهَينةُ، وأسلَمُ، وأشجعُ، وغِفارٌ، ومُزَينَة، وعُصَيَّة، ولَحْيانُ، وغيرهم ممَّن جاورَ المدينة[4]. كأنَّ الله ﷻ يقول لعباده المؤمنين: انتبهوا فأنتم في مجتمعٍ محاطٍ بالمنافقين[5].

فائدة تقديم شبه الجملة على المسند إليه:

ينبغي أن يحذر المؤمنون؛ فإنَّ أعداءهم بهم متربِّصون

تقديمُ الجار والمجرور ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ للتَّنبيهِ على أنَّه خبرٌ مقدَّم، لا نعتٌ[6]. وفيه اهتمامٌ بذِكر معنى الإحاطة أولًا؛ تنبيهًا للمؤمنين بأنْ يُديموا يقظتهم، ولا يطمئنّوا للأعراب جميعًا، فهؤلاء المنافقون المعنيُّون في الآية: أعرابٌ يعيشون حولهم.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾:

﴿مِّنَ﴾في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ لبيانِ (مَن) الموصولة[7]، فهي

(1) البخاري، الصحيح: حديث رقم: (3504)، ومسلم، الصحيح: حديث رقم: (2520).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/10 - 11.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/453.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/495.
(5) الشعراوي، الخواطر: 9/149.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.

تبيِّن جنسَ هذا القسم من المنافقين، وتؤكِّد أنَّهم أعرابٌ، وهم الذين يسكنون البادية من العرب، ولا يُقيمون في الأمصار، ولا يدخلونها إلا لحاجةٍ، وهم ليسوا من الحضر.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

(أل) هنا هي العهدية التي عُهد مصحوبها بتقدُّم ذكره[1]؛ فالإخبارُ هنا عن أنَّ المنافقين من أعرابٍ معروفين، ذكَرَهم الله في آية سابقة، يعرف المؤمنون أشخاصَهم، لكن لا يَعْلم نفاقَهم إلّا عالمُ الغيب والشهادة؛ لأنَّهم من حُذّاق المنافقين الذين مَهَروا في النِّفاق، فخفِيَ أمرُهم، فلم يعلمه أحد إلّا الله تعالى.

يفضح الله سرائر المنافقين، وإن انطلت خدعتُهم على المؤمنين

نكتةُ العطف في: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ عطفٌ على ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم﴾؛ فيكون كالمعطوف عليه خبرًا عن (المنافقون)؛ كأنَّه قيل: المنافقون من قومٍ حولكم ومن أهل المدينة، وهو من عطْف مفردٍ على مفرد[2].

نبتَ النِّفاقُ أيضًا بأرض الإيمان في المدينة

فصار المعنى: إنَّكم أيُّها المؤمنون محاصرون، لا ببعض المنافقين الذين حولكم فقط، بل أيضًا ببعضٍ من الموجودين بينكم في المدينة، ممَّن تدرَّبوا على النِّفاق حتى صارت لهم به أُلْفةٌ.

معنى ﴿وَمِنۡ﴾ في: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

﴿وَمِنۡ﴾ في قوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ تبعيضيَّة مؤذِنة بمُبعِّضٍ محذوف، تقديره: (ومن أهل المدينة جماعةٌ مرَدوا)، كما في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّسَاء: 46][3].

التَّحذيرُ من المنافقين الذين قد يصلون إلى مسجدكم المدنيّ

وفي قوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ دلالةٌ على التَّحذير من المنافقين الذين قد يصلون إلى جواركم في مسجدكم، وفيه امتنانٌ منه

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 194.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/11.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

سبحانه على المؤمنين بأن أخلص قلوبهم له، وطهَّرها، وعصمَهم من النِّفاق.

فائدة مجيء ﴿أَهۡلِ﴾ مع المدينة:

أَهْل الرَّجُل عشيرتُه وذَوُو قُرباه[1]. والمراد به في الآية ساكنو المدينةِ من المهاجرين والأنصار وغيرهم من الأعراب، أي: كلُّ مَن سكن المدينة، واقترب من المؤمنين اقترابَ ذوي الرَّجل وأقربائه.

النِّفاقُ الخاصُّ نابعٌ من بينكم، ومنافقوه من ذوي الصِّلة بكم

وتفيد ﴿أَهۡلِ﴾ هنا دلالةً على أنَّ هذا النِّفاق الخاصَّ نابعٌ من بينكم، ومنافقيه من ذوي الصِّلة بكم، أو هم من أقربائكم وذويكم.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

ينجم النِّفاق حيث يقوى أهل الإيمان، ويكثر في مركز قوَّتهم

(أل) في ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ عهديةٌ، وعهدُها ذهنيٌّ؛ لأنَّها صارت عَلَمًا؛ فقَدْ أصبحت يثربُ - بعدَ هجرة النبيِّ ﷺ إليها - مدينةً مسلِمة؛ إذ بنى فيه مسجدَه الشريف، وألَّفَ فيها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ فالمدينةُ هنا، أي: البلدُ الذي آوى الإسلام، كما ورد في الحديث: «إنَّ الإيمانَ يأرِزُ إلى المدينَةِ، كما تَأرِزُ الحيَّةُ إلى جُحرِها»[2]، وكذلك منه انتشر، وتشعَّب في الأمصار والبلدان، كما بشَّر بذلك الصَّادقُ المَصْدوق ﷺ بقوله: «أُمِرْتُ بقريةٍ تَأْكلُ القُرى، يقولونَ: يَثْرِبُ، وهي المدينةُ، تنفي النّاسَ كما يَنفي الكيرُ خَبَثَ الحديدِ»[3]، ومعنى تَأكلُ القُرى، أي: تَغلِبُهم، وكنّى ﷺ بالأكلِ عن الغَلَبةِ؛ لأنَّ الآكِلَ غالبٌ على المأكولِ، فقد انطلقت جيوش الفتح الإسلاميِّ منها، فغلب أهلها على سائرِ البلادِ، ونصر اللّٰهُ دِينَه بهم، وفتح القُرى عليهم.

بلاغةُ حذف المسند إليه في: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

تقدير الجملة: (ومن أهل المدينة قومٌ أو منافقون مردوا على

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أهل).
(2) ابن حزم، المحلى: (7/282)، وهو حديث صحيح، أصله في صحيح مسلم بلفظ آخر.
(3) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1871).

المنافقون يعيشون بين المؤمنين في المدينة

النِّفاق)، وحذْفُ المسند إليه فيها إشارةٌ إلى أنَّ الخبرَ لا يُتوهَّم أنَّ يكون لغير المحذوف.

ويجوز أيضًا أن يكونَ الحذف لبيان حال المنافقين وطريقتهم؛ فهم أناس تمرَّنوا على النِّفاق، وبلغوا فيه الغايةَ، ووصلوا فيه إلى حيث لا يُعلم نفاقُهم، فلا يعلم نفاقَهم إلَّا مَن علَّمه علّامُ الغيوب ﷻ؛ فناسب هذا التخفّي والتستُّر عدم التصريح بذكر لفظهم.

موقع قوله: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾:

منافقو أهلِ المدينة بلغوا الغاية في النفاق

﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وهي مسوقةٌ لبيان غلوِّ منافقي المدينة في النِّفاق إثرَ بيان اتِّصافهم به.

ويجوز أن تكون ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ خبرًا مقدَّمًا، والمبتدأ بعده محذوفٌ قامت صفتُه مقامَه، والتقدير: (ومن أهل المدينة قومٌ مرَدوا)، وحذْفُ الموصوف وإقامةُ صفته مقامَه - إذا كان بعد اسم مجرور بـ(مِن) أو (في) مقدَّم عليه - مقيسٌ شائع، نحو: منَّا أقام، ومنَّا ظَعَن، ومنه قول سُحَيم:

أَنا ابنُ جَلا وَطَلّاعُ الثَّنايا *** مَتى أَضَعِ العِمامَةَ تَعرِفوني[1]

على أحدِ التأويلات فيه[2]، وتَقديرُه: أنا ابنُ رجُلٍ جلا، أي: كشَفَ الأمورَ[3].

وعلى هذا يكون هذا النَّوع من النفاق مُختَصًّا بأهل المدينة، والمعنى: صاروا في حِرْفة النفاق مهرةً حاذقين، وبلغوا إلى حيث لا تعلم أنت نفاقهم مع قوَّة خاطرك وصفاء حَدْسك ونفسك[4].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مَرَدُواْ﴾ مادَّةً وصيغة:

بلغوا غايةَ النِّفاق - مع عيشهم في مجتمع المدينةِ - بتدرُّبهم عليه

تدور معاني المرود حول تجريد شيء من قِشره أو ما يعلوه من

(1) البيت للشاعر: سحيم بن وثيل الرياحي. يُنظر: السيوطي، شرح شواهد المغني: 1/459.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/11.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/496.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/131.

شَعَره[1]، أو ملاسة ظاهر الشيء الممتدِّ تجرُّدًا ممّا ينبتُ أو يتشعَّب منه عادة[2]. ويقال: مَرَد على الشيء، أي: مَرَن عليه، واستمرَّ[3]، و(مَرَدَ على الأمرِ) معناه: مَرنَ عليه، ودَرِبَ به، ومنه الشَّيطانُ المارِدُ، أي: في الشَّيطَنة[4]. وفُسِّر المرود هنا بالاعتياد والتدرُّب في الأمر إلى المهارة فيه.

والمرود خاصٌّ بمنافقي أهلِ المدينة، لاقترابهم الشديد من المجتمع الإيماني، واقتضاء هذا الاقتراب مهارةً ودربةً في النفاق، وعبَّر بصيغة الماضي لتأكيد تحقُّق هذا المعنى في منافقي المدينة.

عودُ الضَّمير في: ﴿مَرَدُواْ﴾:

منافقو المدينة من عُتاة المنافقين

واو الجماعة ضميرٌ يعود على منافقي ﴿أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ النَّبويَّة، وهذا يدلُّ على أنَّ نفاق المدينة كان صعبًا؛ إذ هو نفاق لا يمارسُه أيُّ شخص، فهو يتطلَّب تمرُّنًا واعتيادًا وحيلةً وإخفاءَ مشاعرَ ومكرًا؛ لأنَّ هذا المنافق الذي يعيش بين أحضان المؤمنين يعاملهم ليلَ نهار، ومن العسير عليه أن يتخفَّى بينهم إلّا إن بلغ الغايةَ في المكر والذُّروةَ في النفاق.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ في: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾:

أمرُ المنافقين خفيٌّ على رسول الله ﷺ

جملة ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ – المشتملة على (لا) النافية والفعل والفاعل المستتر وضمير المفعول – جملةٌ مُستأنَفةٌ.

وسببُ إيثار الفصل على الوصل في قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ استئنافُ كلام جديدٍ، هو التَّنبيهُ على أنَّ هذا الفَلَّ الباقي من المنافقين قد أراد الله الاستئثارَ بعلمه، ولم يُطلع عليهم رسولَه ﷺ، كما أطلعه على كثيرٍ من المنافقين من قبلُ، وإنَّما أعلَمَه

(1) ابن فارس، المقاييس: (مرد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مرد).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (مرد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

بوجودهم على الإجمال لئَلَّا يغترَّ بهم المسلمون[1]، ويمكن أن تكون استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: هل يعلمهم النَّبيُّ؟

الموقع النَّحْويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾:

جملة ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ مُستَأنَفةٌ أيضًا، ويمكن حمْلُها على الاستئناف النَّحويِّ أو البيانيِّ كسابقتها، وأوثر الفصلُ على الوصل لاستئناف كلامٍ جديد، وهو الإخبارُ المُستعمَل في الوعيد، فهو من مثل قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التَّوبة: 94]، وإلَّا فإنَّ الحُكمَ معلومٌ للمُخاطَب، فلا يَحتاجُ إلى الإخبار به.

لا يخفى أمرُ هؤلاءِ المنافقين على علّام الغيوب سبحانه

وفيه إشارةٌ إلى عدم الفائدة للرَّسول ﷺ في علمه بهم؛ فإنَّ عِلم اللّه بهم كَافٍ، وفيه أيضًا تمهيدٌ لقوله بعدُ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[2].

والجملة تقريرٌ لِما سبَقَ من مهارتهم في النِّفاق، أي: لا يقفُ على سرائرهم المركوزة فيهم إلّا مَن لا تخفى عليه خافية؛ لِمَا هم عليه مِن شدَّة الاهتمام بإبطال الكفر وإظهار الإخلاص[3].

بلاغةُ المؤكِّدات في التَّعبير بالاسميَّة، وذكر المسند إليه مرَّتيْن في الجملة: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾:

علمُ اللهِ بحالهم تهديدٌ لهم ووعيد

هذا الحشد من المؤكِّدات: التَّعبير بالاسميَّة، وذكر المسند إليه مرَّتيْن (بالضمير البارز والمستتر)؛ ناسَبَ حالَ المنافقين الذين يثقون بحالهم الخفية، وأنَّه لا يعلم أحدٌ عن حالهم شيئًا، حيث يؤكِّد اللّه ﷻ لهؤلاء المنافقين أنَّه عليم بحالهم كلِّه، وفي ذلك الإخبار وعيدٌ لهم؛ فإحاطةُ علم اللّه بحالهم إشارةٌ إلى أنَّهم لن يستطيعوا أن يُفلتوا من عقابه.

وقد قُدِّم في قوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/11 - 12.

على المسند ﴿نَعْلَمُهُمْ﴾؛ لإفادة قَصْرِ العِلم بهم على الله، وظاهرٌ أنَّ القَصْر هنا هو من قبيل القصر الإضافي، إذ قد تعلمهم الملائكة أيضًا، ولكن جاء القَصْرُ في مقابلة نفي العلم بهم عن الرسول، ولعلَّ ذلك قد كان قبل أن يُعلِمَه الله بهم، أو أنَّ بعض المنافقين لم يُعلِمِ اللهُ رسولَه بهم[1].

فائدةُ العدول من الفعليَّة إلى الاسميَّة في: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾:

يفيدُ نفي المضارع في الجملة الفعلية ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ نفيَ العِلم في الحال والاستقبال، فعلم النبي ﷺ بهم لا فائدةَ منه؛ وذلك لأنَّ علمَ الله بهم كافٍ[2].

إن يكنِ النِّفاق خفيًّا على النبيِّ ﷺ؛ فعِلمُ الله محيط بجوانبه كلِّها

وقد عبَّر بالاسمية بعدها ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾؛ لبيان ثبوتِ علم الله على الإحاطة بهم، وعُبِّر في الخبر بصيغة المضارع ﴿نَعْلَمُهُمْ﴾ إشارةً إلى أنَّ حالهم مهما تغيَّر فهو معلومٌ من قِبَل الله ﷻ.

وهذه الآياتُ ونحوها أقوى دليلٍ للرَّدِّ على مَن يزعم الكشفَ والاطِّلاع على المغيبات بمجرَّد صفاء القلب وتجرُّدِ النَّفس عن الشَّواغل، وبعضهم يتساهلون في هذا الباب جدًّا[3].

بلاغةُ المشاكلة بين: ﴿تَعْلَمُهُمْ﴾ و﴿نَعْلَمُهُمْ﴾:

ذكر معنى العلم في ﴿نَعْلَمُهُمْ﴾ بلفظ الفعل، مثل: ﴿تَعْلَمُهُمْ﴾ وصيغته؛ لوقوعه في صحبته، فشاكل ﴿نَعْلَمُهُمْ﴾ لفظَ ﴿تَعْلَمُهُمْ﴾، ويبدو للوهلة الأولى أنَّ حدَثَ العلم ومعناه واحد في الفعلين، لكن يتَّضح لمَن يمعن النظر أنَّ علم الله محيطٌ بكلِّ صغيرة وكبيرة، وأنَّه سبحانه عليم بماضي المنافقين وحاضرهم ومستقبلهم.

تستوي عند الله الخفيَّات والظَّواهر؛ فقد أحاط بكلِّ شيء علمًا

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/540.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

نكتةُ التَّعبير بالمضارعيَّةِ في: ﴿تَعْلَمُهُمْ﴾ و﴿نَعْلَمُهُمْ﴾:

علـم الله سبحانه مطلقٌ، لا يتقيَّد بزمان

أفاد نفي المضارع في ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ نفيَ علمِ النَّبيِّ ﷺ بحال المنافقين في الحال والاستقبال.

أمَّا صيغة المضارع ﴿نَعْلَمُهُمْ﴾؛ فهي إشارة إلى أنَّ حالَهم مهما تغيَّر؛ فاللّٰه ﷻ يعلمه، أي: يعلم حالهم ومستقبلَهم.

الموقع النَّحْويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾:

جملةُ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ للجواب عن سؤالٍ يُثيره قولُه: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، وهو أنْ يسألَ سائلٌ عن أثَرِ كونِ اللّٰه تعالى يعلمُهم، فأُعْلِم أنَّه سيُعذِّبهم على نفاقهم، ولا يُفلتهم منه عدمُ علمِ الرَّسولِ ﷺ بهم.

جـزاء النِّـفـاق عـذابٌ شـديـدٌ مكرَّرٌ عليهم

وقد اختار عددٌ من علماء التفسير أنَّ المراد بـ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾: العذابُ في الدُّنيا، والعذابُ في القبر، وممَّن ذهَب مِن السَّلفِ إلى أنَّ العذابَ الأوَّل في الدُّنيا، والثاني في القبرِ: ابنُ عبَّاس ومجاهدٌ ومقاتلُ بنُ سليمانَ، مع اختلافِهم في صورةِ عذابِ الدُّنيا، فقال ابنُ عبّاسٍ: هو فضيحتُهم بالنِّفاقِ، وفي روايةٍ: إقامةُ الحدودِ عليهم، وقال مجاهدٌ: الجوعُ، وقال مقاتلٌ: عندَ الموتِ، تضربُ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم[1]. قال أبو زيدٍ الثَّعالبي: "وأكثرُ النّاسِ أنَّ العذابَ المتوسِّطَ هو عذابُ القبرِ"[2].

ويحتَملُ أنَّ العذاب الموصوف بمرَّتَين عذابٌ مخصوصٌ في الدُّنيا: وهو تكثيرُ تَعذيبِهم وتكرُّرُه في الدُّنيا مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ لقوله بعدَهُ: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[3].

(1) ابنُ جريرٍ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 11/644، 649، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/292، وابنُ كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/205.

(2) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/209.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/454، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

دلالةُ دخول سين التَّسويف على العذاب:

المنافقون في ترقُّب دائم للعذاب، وما ارتدعوا

تدلُّ (السِّين) في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ على الاستقبال، وفيه هنا دلالةٌ على أنَّ المنافقين دائمًا في ترقُّب للعذاب، حتى إن عذَّبهم الله مرَّات - في الدنيا - بالقلق تارةً وبالحسرة أخرى، أو بالخوف أو المرض أو بغير ذلك من بلاء الدُّنيا، وهذا الوعيد مستمرٌّ معهم طَوال حياتهم؛ إذا لم يتوبوا؛ فما أشدَّ قلقَهم بهذا التوعُّد؛ كلَّما سمعوا هذه الآية!

بلاغة إضافةِ العذابِ إلى ضمير العظمة:

عذابٌ العظيم شديدٌ أليم

إضافة العذاب إلى ضمير العظمة الرّاجع إلى الله سبحانه في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ فيه دلالةٌ على عِظم هذا العذاب وشدَّتِه؛ فعذاب العظيم عظيمٌ.

وفيه أيضًا دلالةٌ على تأكُّد وقوع هذا العذاب الشَّديد بالمنافقين، وأنَّهم لن يقدروا على الإفلات منه، فمَن يعذِّبهم ليس أيَّ أحد، وإنَّما هو العليم القدير.

وتغييرُ الأسلوب على ما قيل بإسناد عذابهم السابقِ إلى نون العظمة ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ حسب إسناد ما قبله مِن العلم، وإسنادُ ردِّهم إلى العذاب اللّاحق إلى أنفسهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ إيذانٌ باختلافهما حالًا، وأنَّ الأوَّل خاصٌّ بهم وقوعًا وزمانًا يتولّاه الله سبحانه، والثّاني شامل لعامَّة الكفرة وقوعًا وزمانًا وإن اختلفت طبقات عذابهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع في فعل العذاب:

النِّفاقُ مستنزَلُ العذاب، ومستجمَعُ العقاب

في استعمال المضارع هنا في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ دلالةٌ على الاستمرار؛ للدِّلالة على أنَّ عذاب المنافقين مستمرٌّ طَوال حياتهم، كما أنَّهم في هذه الدُّنيا ليسوا بمعزلٍ عن عذاب إلى أن يموتوا، فيعذِّبَهم الله عذابًا عظيمًا في الآخرة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

فائدةُ وصفِ العذاب بـ ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾:

عـذابُ المنافقين شديدٌ مُضاعَف

الظّاهر من قوله: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ إرادة التَّثنية، ويحتمل أن يكون غيرُ مُراد بها شفْعَ الواحدِ، بل يكون المعنى على التَّكثير[1].

والعددُ يُستعمل لمجرَّد قصدِ التَّكرير المفيدِ للتَّأكيد؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: 4]، أيْ: تأمَّلْ تأمُّلًا متكرِّرًا، ومنه قول العرب: لبَّيك وسعدَيك؛ فاسم التَّثنية نائبٌ مناب إعادةِ اللَّفظ.

والمعنى: سنعذِّبهم عذابًا شديدًا متكرِّرًا مضاعَفًا، كقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: 30].

وهذا التَّكرُّر تختلف أعدادُه باختلاف أحوال المنافقين واختلاف أزمان عذابهم[2].

وإذا كانت التَّثنية مُرادةً في قوله: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾؛ فأكثرُ النَّاس على أنَّ العذاب الثّاني هو عذاب القبر، وأمّا المرَّة الأولى؛ فقال ابن عباس في الأشهر عنه: هو فضيحتُهم، ووصْمُهم بالنِّفاق[3].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾:

استخدامُ ﴿ثُمَّ﴾ يفيد التَّرتيبَ مع التَّراخي؛ فعذاب الدُّنيا مرحلةٌ أولى، ينتقل المنافقون منها إلى مرحلة تالية شديدةِ العذابِ بعد موتهم، وهي مرحلة لا قِبَل لهم بعذابها.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يُرَدُّونَ﴾ من حيث المادَّةُ والصيغة:

خـداعُ المنافقين لـلـمـؤمـنـين جـعَـلَـهـم لأشـدِّ الـعـذاب مستحقِّين

تدور مادَّةُ الرَّدِّ حول معاني الصَّرف والرَّجع[4]. ولا يخفى أنَّ المنافقين يُصرفون من عذاب إلى عذاب، ولمَّا كان عذاب الآخرة مختلفًا عن نوع العذاب في الدُّنيا؛ عُبِّر بـ ﴿يُرَدُّونَ﴾، أي: كأنَّهم

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/497.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/497.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ردد).

بالموت يُصْرفون عن عذاب الدُّنيا، ويحولون إلى عذاب الآخرة، وهو عذاب لا عهدَ لهم بشدَّته.

وفي بناء ﴿يُرَدُّونَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله من التَّعظيم ما فيه؛ حيث إنَّ فاعل الحدث غير مذكور للتهويل؛ فهم حال موتهم تستقبلهم ملائكة يضربون وجوهَهم وأدبارهم، ثم بعد ذلك يسوقهم ملائكةٌ غلاظٌ شداد إلى جهنَّمَ، فجاء التعبير بهذه الصيغة مناسبًا للعذاب العظيم في ختام الآية، لذا غيِّر السَّبك إليه[1].

نكتة تنكير ﴿عَذَابٍ﴾:

تنكير العذاب هنا للتَّهويل، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه نوعٌ مبهم من العذاب، عذابٌ شديد لم يجرِّبه المنافقون، ولم يعاينوه من ذي قبلُ.

أبهم المنافقون حالَهم، فأُبهِمَ لهم العذابُ جزاءً وِفاقًا

فائدة وصف العذاب بأنَّه عظيم:

وُصِفَ العذابُ بأنَّه ﴿عَظِيمٍ﴾؛ لدفع الإيهام بقلَّته أو خفَّته؛ فعذاب الآخرة بمسبِّب، والمعذِّب في الآخرة واحدٌ وقوَّته لا نهاية لها، وإنْ قِيس عذاب الآخرة بالعذاب في الدُّنيا؛ فمن المؤكَّد أنَّ عذاب الآخرة عذابٌ عَظيم.

عَظُمَ جُرمُ المنافقين فعظُمَ عذابُهم

ولا شكَّ في أنَّ عذاب المنافقين (العظيمُ): هو عذابُ جهنَّمَ[2]؛ فقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]. ولا يخفى أنَّه إذا فُسِّر العذابُ العظيم بعذاب (الدَّرك الأسفل من النار)؛ لم يكُن شاملًا لعامَّة الكفرة، نعم، هو شامل لعامَّة المنافقين فقط[3].

بلاغةُ العطف في: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾، وجملة ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾

اللـه سبحانه رحيمٌ لا يعاجِلُ بالعقاب، ويقبل مَن تاب إليه وأناب

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

صفتُهُ[1]، والمعنى: ومن أهل المدينة منافقون، وآخرون أذنبوا بالتَّخلُّف، فاعترفوا بالتَّقصير في أمر الله لهم بالجهادِ، وهو من كبائر الذُّنوب.

وعطف ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ بَيانٌ لحال طائفةٍ من المسلمين ضعيفةِ الهِمَم في أمر الدِّين لم يكونوا منافقين على الصَّحيح، فقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يدلُّ على أنَّهم لم يكونوا منافقين؛ لأنَّ التَّعبير بالذُّنوب بصيغة الجمع يقتضي أنَّها أعمال سيِّئة في حالة الإيمان، وكذلك التَّعبير عن ارتكاب الذُّنوب بخلط العمل الصالح بالسَّيِّئ[2]، فهم قوم مؤمنون أذنبوا، ثم وفَّقهم ربُّهم للتَّوبة[3].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

جملة ﴿ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقعت صفةً لـ (آخرون)، وفي ذلك إيجازٌ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّهم أذنبوا، واعترفوا بذنوبهم، ولم يكونوا منافقين؛ لأنَّ التَّعبير بالذُّنوب بصيغة الجمع يقتضي أنَّها أعمال سيِّئة في حالة الإيمان، وكذلك التَّعبير عن ارتكاب الذُّنوب بخلط العمل الصَّالح بالسَّيِّئ[4].

مَـن تـاب؛ تاب الله عليه، ومَن مشى إلى الله؛ هرولَ الله إليه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱعْتَرَفُواْ﴾ من حيثُ مادَّتُها وصيغتُها:

قوله: ﴿ٱعْتَرَفُواْ﴾ أي: أقَرُّوا عن معرفةٍ[5]. والاعتراف: افتعالٌ من (عَرَف)، وهو للمبالغة في المعرفة، ولذلك صار بمعنى الإقرارِ بالشَّيء وترك إنكاره، فالاعترافُ بالذَّنب كنايةٌ عن التَّوبة منه؛ لأنَّ الإقرارَ بالذَّنب الفائت إنَّما يكون عند النَّدم والعزم على عدم العود

مَـن عـرف جِـرمَه عــرف جُــرمَــه، واستعظم إثمَه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/132.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

إليه، ولا يُتصوَّر فيه الإقلاعُ الذي هو من أركان التَّوبة؛ لأنَّه ذنبٌ مضى، ولكن يُشترط فيه العزمُ على ألَّا يعود[1].

وفي صيغة الماضي في قوله: ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ذلك الاعترافَ حصَلَ في الماضي، وذلك يدلُّ على أنَّ ذلك الاعترافَ ما كان نفسَ التَّوبة، بل كان مُقدِّمةً للتَّوبة، وأنَّ التَّوبة إنَّما تَحصُل بعده[2].

معنى الباء في: ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾:

لا يسأل التَّطهير إلّا مَـن آلَـهُ الـدَّنـس، وآذاه القذر

والباء هنا على أصل معناها (الإلصاق، والملابسة)؛ فهم لم يعتذروا عن تخلُّفهم بأعذار باطلة كغيرهم، وإنَّما اعترفوا على أنفُسهم بذنوبهم التي تلاصق أنفسهم التي هي تخلُّفهم عن الغزو، وإيثار الدَّعة عليه، والرِّضا بسوء جوار المنافقين، لم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة المؤكَّدة بالأيمان الفاجرة[3]، وأظهروا النَّدامة، وذمُّوا أنفُسَهم على ذلك التَّخَلُّفِ، ويمكن أن تكون الباء للتعدية.

ومجَرَّدُ الاعتراف بالذَّنب لا يكون توبةً، أمّا إذا اقترن به الإقلاعُ عن المعصيةِ، والنَّدمُ على الماضي، والعزمُ على تركه في المستقبل، وكان هذا النَّدمُ والتَّوبةُ لأجْلِ كونه منهيًّا عنه من قِبَل الله تعالى؛ كان هذا المجموعُ توبةً، إلّا أنَّه دلَّ الدَّليلُ على أنَّ هؤلاءِ قد تابوا بدليل قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، و(عسى) من الله يدلُّ على الوجوب[4].

غَرَضُ إضافة (الذُّنوب) إلى ضميرهم:

ذنـوبٌ وقـعـوا فيها عن جهالة، ثـم استبـصـروا عَمايتها

في إضافة الضَّمير إلى الذُّنوب دلالةٌ على ندمهم الشَّديد، واعترافهم الصَّادق بأنَّهم هم وحدهم المسؤولون عمَّا اقترفوا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/133.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/132.

وهي ذنوب وقعوا فيها عن جهالة، ثم استبصروا عَمايتها، ولا ذنب لأحد سواهم.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾:

جاءت جملة ﴿خَلَطُواْ﴾ خبرًا لـ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وجُعل في قوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ كلٌّ من العملين مخلوطًا، فما المخلوط به؟ إنَّ كلَّ واحد مخلوطٌ ومخلوط به؛ لأنَّ المعنى: خلْطُ كلٍّ واحدٍ منهما بالآخر، نحو: خلطتُ الماء واللَّبن، أي: خلطتُ كلَّ واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في: خلطتُ الماء باللَّبن؛ لأنَّ الماء جُعل مخلوطًا واللَّبن مخلوطًا به، وإذا قيل: بالواو؛ جُعل الماء واللَّبن مخلوطَيْن ومخلوطًا بهما، كأنَّه قيل: خُلط الماءُ باللَّبن، واللَّبنُ بالماء[1].

من بركة الأعمال الصَّالحة أنَّها تشفع لصاحبها وإن خُلطت بغيرها

عودُ الضَّمائرِ في الجملة السابقة:

الضَّمائر في الجملة السَّابقة (اعترفوا، خلطوا) تعود إلى ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وفي معناه قولان:

الأوَّل: أنَّهم قومٌ من المنافقين تابوا عن النِّفاق.

الثَّاني: أنَّهم قوم من المسلمين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، لا للكفر والنِّفاق، لكن للكسل، ثمَّ ندموا على ما فعلوا، ثمَّ تابوا.

دوحةُ التَّوبة وارفةٌ ظلالُها لا تردُّ مستظِلَّا

واحتجَّ القائلون بالقول الأوَّل بأنَّ قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ والعطف يُوهم التَّشريك إلَّا أنَّه تعالى وفَّقهم حتى تابوا، فلمَّا ذكر الفريقَ الأوَّل بالمردِ على النِّفاق والمبالغة فيه؛ وصَفَ هذه الفرقةَ بالتَّوبة والإقلاع عن النِّفاق.

وروي أنَّهم كانوا ثلاثةً: أبو لبابة مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبةَ، ووديعةُ بن حزام، وقيل: كانوا عشرة.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/170.

فسبعةٌ منهم أَوثقوا أنفسهم لمّا بلغهم ما نزل في المتخلِّفين، فأيقنوا بالهلاك، وأوثقوا أنفسَهم على سواري المسجد، فقدِمَ رسول الله ﷺ، فدخل المسجد، فصلّى ركعتَين، وكانت هذه عادته، فلمّا قدم من سفرِه، ورآهم موثَّقين؛ سأل عنهم، فذُكر له أنَّهم أقسموا ألّا يحلُّوا أنفسهم حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يحلُّهم، فقال: وأنا أُقسم أنّي لا أحلُّهم حتى أومر فيهم، فنزلت هذه الآية؛ فأطلقهم، وعذَرَهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿خَلَطُواْ﴾ مادَّةً وصيغة:

مَن ذا الذي ما ساء قطُّ ومَن له الحسنى فقط

المعنى المحوريُّ للخلط: هو دخول شيءٍ في أثناء أو خَلَلِ شيءٍ آخرَ ممتزجَيْن؛ فيغلظُ، أو يحتدُّ، أو يكثر[2].

ومعنى خلطِهم العملَ الصّالحَ والسَّيِّئ: خَلْطُهم حسناتِ أعمالهم بسيِّئات التَّخلُّف عن الغزو، وعدم الإنفاق على الجيش[3]، وفيه استعارة مَكْنِيَّةٌ حيث شبَّه الأعمال الحسنة والأعمال السيِّئة بشيء ماديٍّ يُخلط، ويُمتزج بغيره.

نكتةُ التنكير والإفراد: ﴿عَمَلًا﴾ و﴿صَٰلِحًا﴾ وتقديمهما:

عمومُ حالهم السَّيرُ في العمل الصالح ورغبتهم فيه

جاءت ﴿عَمَلًا﴾ نكرةً لعدم إرادة التَّعيين، فأفادت تعميمًا، ثم وصفت بـ ﴿صَٰلِحًا﴾ التي جاءت نكرةً أيضًا، فأضافت لهذا العموم تخصيصًا، والمعنى: الحسنُ من الأعمال.

والإفراد الذي في ﴿عَمَلًا﴾ وفي ﴿صَٰلِحًا﴾ يُشير إلى أنَّهم يعملون العمل الصالحَ، ثم لا يلبثون أن يعملوا السيِّئ، فهم غير المؤمنين المحافظين على أعمالهم المستقيمةِ، وأفاد تقديمُ ذكرِ العمل الصالح على السيِّئ أنَّ نفوسَ هؤلاء القوم ترغبُ في الخير، وتستشرفُه، وتفضِّله على سيِّئات الأعمال.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/132.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلط).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.

فائدةُ العطف في: ﴿وَءَاخَرَ﴾:

من رحمة الله مضاعفةُ الحسنات، ومغفرةُ السَّيِّئات

في قوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ جاء ذِكر الشَّيئين المختلطَيْن بالعطف بالواو على اعتبار استوائهما في وقوع فعلِ الخلط عليهما، ويقال: خلطَ كذا بكذا على اعتبار أحدِ الشَّيئين المختلطَيْن متلابسين بالخلط.

والتَّركيبان متساويان في المعنى، ولكنَّ العطفَ بالواو أوضحُ وأحسن؛ فهو أفصح[1]، حيث إنَّ العدول عن (الباء) لتضمين الخلْطِ معنى العمل، كأنَّه قيل: (عملوا عملًا صالحًا وآخرَ سيئًا)، ثمَّ انضاف إلى العمل معنى الخلط، فعُبِّر عنهما معًا به[2].

وجهُ العدول من: ﴿عَمَلًا﴾ إلى ﴿وَءَاخَرَ﴾:

إهمالُ ذكرِ العمل السيِّئ وتحقيرُهُ

قال الله سبحانه: ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، ولم يقُل: (وعملًا سيئًا)، فترك لفظ (عملًا) في مقام ارتكاب السيِّئاتِ؛ إهمالًا لذكر أعمالهم السَّيِّئة، وفيه إشارةٌ إلى تحقيرها وقُبْحِ ذكرها.

بلاغةُ الطباق بين: ﴿صَٰلِحًا﴾ و﴿سَيِّئًا﴾:

وصفُ العملِ بالسُّوء يقتضي نِفارَ النَّفسِ منه

بين هذين المعنيين ﴿صَٰلِحًا﴾، و﴿سَيِّئًا﴾ محسِّنٌ بديع، وهو الطِّباق، ويؤتَى به للجمعِ بين لفظين متضادَّين في الكلام، وهذا لتوضيح أنَّ هؤلاء المخلَّفين قد جمعوا بتخلُّفهم عن رسول الله ﷺ بين عملَين متضادَّين متقابلين، وهما: إيمانهم وأعمالهم الحسنة، وترك الجهاد مع النبي ﷺ والتخلُّف عن الجيش.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾:

الله الرَّحيم لا يردُّ تائبًا، ولا يعيّر مذنبًا

﴿عَسَى﴾ من أفعال المقاربة وتفيد الرَّجاءَ، ولفظ الجلال ﴿ٱللَّهُ﴾ اسمُها، و﴿أَن﴾ وما في حيّزها خبر[3]. و﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/170.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/167 - 168.

﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ جملة استئنافيَّةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، ويمكن أن تكون استئنافًا بيانيًّا.

وما دام قد اختلط الخير بالشَّرِّ، وكان التَّرجّي؛ فإنَّه يُرجى قبولُ التَّوبة؛ لأنَّ الحسنات يُذهبن السَّيِّئات، ولأنَّ الخير الغالبَ برحمة الله يذهب بالشَّرِّ المغلوب، وإنَّ غفران الله ورحمته يطلبان قبول التَّوبة حيثُ كان لها مسوِّغ؛ لأنَّ الله تعالى يقبل التَّوبة من عباده، ولأنَّه غافر الذَّنب قابلُ التَّوبة شديد العقاب[1].

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿عَسَى﴾ على الأمر المحقَّق:

دأْبُ الملوك إيجابُ الوعد تفضُّلًا وإحسانًا

و﴿عَسَى﴾ فعلُ رجاء، وذِكْرُ فعلِ الرَّجاء يستتبع معنى اختيار المتكلِّم في وقوع الشَّيء وعدم وقوعه، ولمّا كانت ﴿عَسَى﴾ من كلام الله تعالى المخاطَبِ به النَّبيُّ ﷺ؛ كانت كنايةً عن وقوع المرجوِّ، وأنَّ الله قد تاب عليهم[2]. فـ ﴿عَسَى﴾ منه ﷺ واجبةٌ؛ لأنَّ هذا دأْبُ المُلوك، ولعلَّ التَّعبير بها يفيد - مع الإيذان بأنَّه لا يجب عليه لأحد شيءٌ، وأنَّ كلَّ إحسانٍ يفعله؛ فإنَّما هو على سبيل الفضل - إشارةً إلى أنَّهم صاروا كغيرهم من خُلَّص المؤمنين غيرِ المعصومين في مُواقَعَة التَّقصير، وتوقُّع الرَّحمة من الله بالرُّجوع بهم إلى المراقبة، فكما أنَّ أولئك معدودون في حزب الله مع هذا التَّقصير المرجوِّ له العفو، فكذلك هؤلاء[3].

الموقع النَّحْويُّ لـ ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾:

الإطماعُ من الله سبحانه إيجابٌ فهو أكرم الأكرمين

﴿أَن﴾ المصدريَّة وما في حيِّزها خبرٌ لـ ﴿عَسَى﴾[4]، والمعنى: عسى الله أنْ يقبلَ توبتَهم[5]. و﴿عَسَى﴾ تفيد الرَّجاء، وهو في كلام الله

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3433.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/11.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/167 - 168.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.

سبحانه يُفيد تحقُّق الوقوع؛ لأنَّ الإطماع من الله سبحانه إيجابٌ لكونه أكرمَ الأكرمين[1].

غرضُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَتُوبَ﴾:

يدلُّ المضارع هنا على استمرار قَبول الله توبةَ مَن يعترف بذنبه، ويندم على اقترافه إلى قيام السّاعة.

ما دامت روحُ الإنسان فيه؛ فإنَّ التَّوبة مفتوحةٌ أبوابُها تناديه

ويفيد المضارع أيضًا الاستقبال، فقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ يقتضي أنَّ هذه التَّوبة إنَّما تَحصُل في المستقبَل، وأن الاعترافَ ما كان نفسَ التَّوبة، بل كان مُقدِّمةً للتَّوبة، وأنَّ التَّوبة إنَّما تَحصُل بعدها[2].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: مستأنفةٌ، وآثر الفصلَ دون الوصل؛ لأنَّ الجملةَ مسوقةٌ لتعليل ما قبلها، وهو وجوبُ قبولِ التَّوبة؛ فالله تعالى كثيرُ المغفرة والرَّحمة، يتجاوز عن التّائب، ويتفضَّل عليه[3].

الله يتجاوز عن عباده بقَبول التَّوبة، ويتفضَّل عليهم بالرَّحمة

بلاغةُ التَّذييل بهذين الاسمَيْن الجليلَيْن:

جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييلٌ مناسب للمقام[4]، فلمّا كان ﴿عَسَى﴾ من الله واجبًا، وقبول التوبة واقعًا؛ خُتم بما يدلُّ على قبول التَّوبة، وذلك صفة الغفران والرَّحمة.

مغفرةُ الله تعالى عامَّةٌ ومستمرَّة إلى يوم القيامة

وهذه الآية وإن نزلت في ناسٍ مخصوصين، فهي عامَّةٌ في الأُمَّة إلى يوم القيامة[5]؛ لأنَّ العبرةَ بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب.

لطيفةُ تتابعِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

اجتمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عددٌ من المؤكِّدات،

يؤكِّد الله تعالى لعباده قَبولَه التَّوبة؛ لئلّا يقنِّطهم الشَّيطان منها

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/454.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/133.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/14.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/499.

وهي: حرف التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، واسْميَّة الجملةِ، وفيها دلالةٌ على ثبوت المعنى، وفيها أيضًا تقريرٌ لمضمون الجملةِ التي قبلها توكيدًا لمعنى (قبول التَّوبة)، ومجيء المسند إليه لفظ الجلال ﴿ٱللَّهَ﴾، وفي التَّعبير به توكيدٌ لكلِّ ما يُسنَد إليه من صفات الكمال.

وكذلك التَّعبير بصيغتي المبالغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الدّالَّتين على تكرار المغفرة من اللّه واستمراريَّتها، وثبوت صفة الرَّحمة.

ووقوع الجملةِ معطوفةً على قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ الموجبةِ لقبول التَّوبة، وعطفُ المؤكَّد على مثله مبالغةٌ في التَّوكيد.

وقد توالت هذه المؤكِّدات؛ لدفع أيِّ شكٍّ في حصول قبول التَّوبة ترغيبًا للمذنبين فيها، وتطمينًا لهم بأنَّ اللّه يقبل التَّوبة عن عباده، وأنَّه غفور رحيم.

نكتةُ تقديم: ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

قُدِّم لفظ ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ لنكتةٍ لطيفة، فمغفرةُ اللّه سبحانه ذنوبَ عباده التّائبين من رحمته بهم، وأنَّه سبحانه هو الذي يغفر الذُّنوب جميعًا؛ لأنَّه رحيم.

مِن كمال رحمةِ اللـه مغفرتُهُ للمذنبين وتوبتُه على العصاة

فتقديم ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ جاء في غاية المناسبة، فهو من باب تقديم المسبَّبِ على السبب: فغفرانُ اللّه ذنوبَ التائبين مسبَّبٌ عن رحمته ﷻ، أو لأنَّ المغفرة تقتضي مطلق السَّتر والتَّغطية، وأمّا الرَّحمةُ؛ فهي مزيد تفضُّل.

سرُّ تنكير الاسمَيْن الجليلَيْن:

جاء هذان الاسمان الجليلان ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نكرتَين لإفادة التَّعميم، والمعنى: أنَّه ﷻ غفورٌ لكلِّ ذنب، وهو سبحانه رحيمٌ يلطف بكلِّ عبد تائبٍ.

لا تضيقُ رحمةُ اللـه بعاصٍ، ولا يتعاظمُ على التَّوبةِ ذنبُ مذنب

ومِمَّا يدلُّ على أنَّ غرض التَّنكير هنا هو التَّعميمُ ورود الاسمين

الجليلين بصيغة المبالغة العاملة عمل فعلها؛ فهي بمنزلةِ فعلِها الذي حُذِف معمولُه توسُّعًا لإرادة التَّعميم؛ فإنَّ صفاتِ الله ﷻ صفاتُ عموم وشمول تامٍّ فيما هي له[1].

كما أنَّ وضع الاسم الظَّاهر موضع الضَّمير فيه إشارة إلى استقلال الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وبهذه الاستقلاليَّة تكون الجملة بمنزلةِ قضيَّةٍ كليَّةٍ لها صفة العموم[2].

غرض صيغ المبالغة فيهما:

لا يملُّ الله من مـغـفـرة، ولا تضيق رحمته عن منيب

عُبِّر بصيغتي المبالغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للدلالة على كمال صفتَي المغفرة والرحمة؛ إذ أُطلِقت على مستحقٍّ للكمال أو الكثرة فيهما، وهو إطلاق على وجه الحقيقة لا على سبيل المبالغة، فما يسمّى بصيغ المبالغة إذا أُطلقت على الله ﷻ؛ فهي مطلقةٌ بحسب أصلِ وضعها اللُّغوي، ولا مبالغة فيها[3]. والمعنى: هو تكرُّرُ المغفرة من الله لعباده التّائبين واستمراريَّتُها، فالغفورُ الذي يستر ذنوبَ عبادِه، ويتجاوزُ عنها، ويقيهم آثامَها بالعفوِ عنها، وصيغةُ (فَعول) تُنبئُ عن جَودةِ الفعل، وكمالِه، وشمولِه، فهو بمعنى تامِّ المغفرة، لذا ورد عن عبد الله بن عمر ﷺ قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله يُدني المؤمنَ، فيضعُ عليه كَنَفه، ويسترُه، فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا، أتعرفُ ذنبَ كذا، فيقول: نعم، أيْ ربِّ. حتى إذا قَرَّرَهُ بذنوبه، ورأى في نفسه أنَّه هلك، قال: سترتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفرُها لك اليوم»[4]. والرحيمُ مفيدٌ ثبوتَ صفة الرَّحمة، فاللهُ ذو الرحمة الواسعة للمؤمنين يوم القيامة.

---

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/409.

(2) حسن، بلاغة اللغة: 2/104.

(3) حسن، بلاغة اللغة: 2/456 - 457.

(4) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (2441)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2768) باختلاف يسير.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المدينةُ ويثربُ في الاستعمال القرآنيّ:

المنافقون يخالفون اللهَ ورسولَه ﷺ بتسمية المدينة باسمها الجاهليّ

يثرب: اسمٌ قديم لمدينة رسول الله ﷺ، ومأخوذٌ إمّا من التَّثريب الذي هو اللَّوم والتَّعيير، وإمَّا من الثَّرْب الذي هو فسادٌ في كلام العرب[1]. وكان بعضُ المنافقين يسمّونها بهذا الاسم، ولـمّا أخبر الله ﷻ عن قولهم؛ قال: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ [الأحزاب: 13]؛ فعَدَلوا عن الاسم الذي ذكره الله في كتابه عَلَمًا عليها في أربعةِ مواضع منه، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة: 120]، وعن الاسم الذي وسَمَها به النبيُّ ﷺ من المدينة وطيبة مع حُسْنه، إلى الاسم الذي كانت تُدعى به قديمًا في الجاهلية مع ظهور قُبحهِ باشتقاقه من الثَّرب أو التَّثريب للعدول عن الإسلام[2]، ولتذكير بعضهم بالاسم الَّذي كانت تُعرف فيه المدينة قبل وصول النَّبيِّ ﷺ إليها؛ من أجل إشعال جذوةِ الفتنة والعصبيَّة في المدينة.

(مرَّتيْن) و(كَرَّتيْن):

المرَّة مع الوقوع والكرَّة مع الرجوع

الفرق بينهما: أنَّ الكَرَّة مشتقَّةٌ من الكَرِّ، وهو العَودُ؛ لأنَّها عَودٌ إلى شيء بعد الانفصال عنه، ككَرَّةِ المقاتل يحمل على العدوِّ بعد أن يفرَّ فرارًا مصنوعًا[3]، أمَّا المرَّةُ، فمعناها: وقوعٌ للحدث أو الأمر[4].

ولذلك ذُكِر لفظ ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ في سياق تكرار رَجْع البصرِ حيث قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: 4]؛ أي: رَجعةً بعد

(1) ابن منظور، اللسان: (ثرب).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/306.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/19.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مرر).

رَجعةٍ وإنْ كثُرت[1]، وذُكِر لفظ ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ في سياق تكثير وقوع العذاب عليهم[2].

العذابُ العظيمُ والأليمُ والمُهينُ والشديدُ والمقيمُ:

العذاب العظيم أشدُّ أنواع العذاب على الإطلاق شدَّةً وزمنًا وألمًا وإهانة، ويشمل كلَّ أنواع العذاب من حيث الكمُّ والكيف والدَّوام، ويشمل الأليمَ والمهينَ والشَّديدَ والمقيم[3]، وهو غاية العذاب القصوى من الضَّرر[4].

العذابُ العظيم أقسى أنواع العذاب وأعمُّه

الألم: الوجع الشديد. والإيلام: الإيجاعُ. والعذاب الأليم: هو العذابُ المؤلِمُ الموجِع، الذي يبلغ إيجاعُه غايةَ البلوغ[5].

والعذاب المُهين مشتمل على المذلَّة والهوان والافتضاح، فهو وصفٌ يدلُّ على الإهانة والإذلال مع العذاب[6]. والإهانة عقوبةٌ لمن طلب العزَّة والكرامة بعيدًا عن منهج الله ﷻ[7].

والشين والدّال أصل واحد يدلُّ على قوَّة في الشَّيء، والشَّد: العقد القويُّ. يقال: شددْتُ الشيء: قوَّيت عقده[8]. والملاحظُ من النّاحية المعجميَّة في استعمال (شدَّ) في سياقاته المختلفة: أنَّ معنى القوَّة موجودٌ وظاهر، والشِّدَّة في العذاب تدلُّ على قوَّته وسطوته على المعذَّب[9]، والعذاب الشَّديد تتضاعف آلامه وقوَّته[10].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/497، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/98.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 11/15، 18/132، 25/219.
(4) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 22.
(5) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب الأصفهاني، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ألم).
(6) الزحيلي، التفسير الوسيط: 3/2395.
(7) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 26.
(8) الرّاغب الأصفهاني، المفردات: (شدد).
(9) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 17.
(10) البقاعي، نظم الدرر: 10، 373.

والعذاب المقيم عذابٌ دائمٌ ثابتٌ لا يزول، ولا يبيد، ولا يَحول، ولا ينقطع أبدًا[1]. ومعنى هذا الوصف أنَّ عذاب المعذَّبين غيرُ منفكٍّ عنهم، مثل مَن يقيم بمكان إقامة دائمة، فيجعل هؤلاء المعذَّبين يائسين من التفكير في الخروج من هذا العذاب والعودة منه إلى الدُّنيا[2].

والذين يسارعون إلى المعاصي والجحود لهم عذاب عظيم؛ لأنَّ المسارعة تكون لأمر هائل، وهذا من العذاب المستحقِّ للكافرين والمنافقين، وهم أشدُّ المعذَّبين بصنوف العذاب المختلفة لمسارعتهم في الكفر ونفاقهم وجحودهم[3].

الخلطُ واللَّبسُ والمزجُ:

الخلط أعمُّ من اللَّبس والمزج

الفرق بين الخلْطِ واللَّبس: أنَّ أصلَ الخلط الجمعُ بين الشيئين فأكثر[4]، وتداخلُ أجزاء الأشياء بعضها في بعض[5]، وأصل اللَّبس: التَّغطيةُ وستر الشيء[6]. وقد قيل في معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 42]، أي: لا تُغَطُّوا[7].

واللَّبْسُ يستعمل في الأعراض مثل الحقِّ والباطل وما يجري مجراها، وتقول: في الكلام لَبْسٌ، والخلطُ يستعمل في العَرَض والجسم، فتقول: خلطتُ الأمرين، ولبستهما، وخلطت النَّوعين من المتاع، ولا يقال: لَبَسْتُهما، وحدُّ اللَّبْس منعُ النَّفْس من إدراك المعنى بما هو كالسَّتر له؛ ذلك بأنَّ أصل الكلمة: السَّترُ[8].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/293، 14/340، 21/554، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/159.
(2) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 29.
(3) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 22.
(4) الرّاغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).
(5) الفيومي، المصباح المنير: (خلط).
(6) الرّاغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلط).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/341.
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 302.

والفرق بين الخلط والمزج: أنَّ الخلط أعمُّ من المزج؛ فإنَّ الخلْطَ - كما سبق - جمْعٌ بين شيئين فأكثر، سواء كانا مائعين أو جامدين، أو أحدُهما جامدٌ والآخر مائع، أمَّا المزج؛ فإنَّه يختصُّ بالمائعات[1]، فتقول: خلطتُ بين القمح والشَّعير، ولا تقول: مزجتُ بينهما.

(1) الرّاغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»